«أناديك يا ملكي وحبيبي»

للشاعر محمد علي شمس الدين

بقلم: عبد الرحمن حمادي

«ماذا نستطيع نحن النقاد أن نفعل في بعض أسرار العمل الفني الذي يولد تحت الشمس؟!» هكذا تساءل الناقد محمد عيتاني على هامش الديوان الجديد للشاعر (محمد علي شمس الدين) المعنون بـ «أناديك يا ملكي وحبيبي»[1]، والأخ الناقد لم يجف الحقيقة عندما وضع هذا التساؤل. فالولوج إلى عالم هذا الشاعر الجنوبي في أيّ من دواوينه يعني أن يتسلح القارىء ويتهيأ لعالم شعري سينقله بالضرورة إلى تهويم صعب وعذب في آن واحد، تهويم في عوالم تراثية وفكرية وخيالية... لكنها تتشابك في النهاية لتصب في خدمة الإنسان العربي وقضيته، بداية من الجنوب اللبناني المضطهد - المناضل، وانتهاء بآخر معذب فوق خارطة العذابات العربية، وبالتالي يتوجب على القارىء التسلح بإمكانية كبيرة لمواجهة الكشف الذي سيفتحه الشاعر أمامه بقلق مرّ، ولكنه عذب، كونه قلق الفنان الصادق قبل كل شيء.

إنه قلق مخيف وحلو، شائك ولكننا ننجذب إليه، صعب ولكننا نتابعه، قلق نحسه منذ أول صفحة في الديوان.. من الاهداء:

«إلى
مينرفا وخديجة وآسيا وبلقيس
كل النساء التي ماتت غداً
مواليد برج التعب»

ثم نبدأ المواجهة، مواجهة قلق الشاعر الذي شفّت نفسه حتى أوصلته إلى آخر حدود الغربة، الغربة النفسية أولاً، والجسدية ثانياً، فهو يتخبط في إحساس مرّ باغترابه عن الأشياء: الوطن.. الناس.. الأصدقاء..، حتى الهواء يصيح له منظور الاغتراب والجفاوة

«ليس لي وطن أو صديق
والهواء الذي يتسلل تحت الثياب
ينحني خائفاً أن يلامس قلبي»

وبالتالي فإن هذا الاغتراب يوصله إلى آخر ما يمكن أن يصل إليه الفنان من معاناة، معاناة تشعره بانتهائه الجسدي، وباقترابه من النهاية:

«لست أبكي قلقي
ولكنه القلب أمسى على آخر النبض»

حتى في الحب، حب آسيا وبلقيس ومينرفا وغيرهن، هناك إحساس بفاصل اغتراب جانباه القلق والعذاب:

«تذوب البحار التي تفصل العاشقين
ولكنني خائف أن تكون البحار التي بيننا
غير موصلة للهوى
إن مرجانة القلب مفقودة»

ولنلاحظ هذا الحزن - الطوفان، الممتزج بأقصى ما يتحمله المرء من قلق واغتراب وعذاب:

«ما الذي يجعل الأرض أصغر مما تكون
جواد وحيد بلا فارس
وسيف بلا ساعة
وقافلة من حداء حزين»

وبالنتيجة، هو وحيد إلا من أحزانه، ومن عمق المسافات بينه وبين التواصل مع الأشياء والآخرين، بحيث يصبح للحزن طعم آخر محبب يعطي بعض الراحة:

«إنها وحدتي
ترجّل إذن أيها الحزن
يا أصغر الكائنات الجميلة
ودعني أقبل عينيك»

لا بد إذن من أن يسعى الشاعر إلى تكوين عالمه الخاص، عالم تبرز فيه (أنا) الشاعر المستوحد، وتظهر فيه مكوّنات تختلف عن المكوّنات المعروفة:

«قلت للريح فوق الطبول
سلاماً
أنا غارب فاتبعيني
قلت للنعجة المطمئنة في خوفها
سلاماً
أنا غارب فاتبعيني»

فالأرض والبشر والعالم لا يستطيعون إشباع عطشه للاستقرار النفسي والجسدي، وإنما هو ضياع وضياع، إنه وفي حالته هذه لا يطلب الكثير، يطلب لو أن يتساوى مع أصغر مخلوق:

«من يمنحني سلام التراب، ويساويني بالسمكة
والعصفورة والدودة العمياء»

ولكن السؤال يلح علينا الآن:

ما هذا الاغتراب اللانهائي في عالم محمد علي شمس الدين؟!

هل نحن ملزمون بتحمل اغترابه وقلقه للأبد؟!

والجواب: نعم، نحن ملزمون بتحمل اغترابه، فاغتراب الفنان هو ضرورة حقيقة وصوله، ما دام هذا الاغتراب يصب في النهاية بجدول معاناة الإنسان والوطن والقضية، والأرجح أن يكون ذلك عند الشاعر الجنوبي

---

[1] دار الآداب - بيروت

ما الذي نتوقعه من فنان علمته القرى المحترقة تحت انفجارات القنابل أن يخطّ الكلمة الشعرية الأولى. فنان شرّح فيه دم الضحايا في «بيت ياحون»[٢]، وآلام المشوهين في «الخيام»[٣].. وغيرهما، فنان صفعته حساسية فنية بصراخ النساء المثكولات المنكوبات في هذا الجنوب المجلود؟!

وعندما مدّ بصره لخارج الجنوب، صوب الوطن الكبير لعله يجد أملاً، لم يجد إلا خارطة الانتكاسات، فصار الجنوب جزءاً من جراح لبنان، وصار لبنان بعضاً من جراح الوطن العربي الذي أمسى شارة دائمة للبكاء!

من هذا كله تأتي فنية القلق والاغتراب وضرورتها لأنها بالتالي اغتراب الوطن العربي والإنسان فيه وقلقهما، فالاغتراب والقلق بالضرورة يجعلانه يرينا عمق المأساة التي نعيش كلنا، إن في ماضينا، أو في حاضرنا:

«فأبصرت الفرسان على صهوات الخيل
ورائدهم يتقدم في بردة عبد الرحمن
ويحمل في كفيه قضيب الملك
أرى ملكاً يتقدم أم يتأخر؟!»

ويظهر لنا مأساة الكبت الذي يمارس على إنسان الوطن:

«زهر البرية ممنوع أن ينبت في البرية
والشهداء يحبون الزهر البري
فكيف نرتب هذا الأمر»

ويكشف لنا عن الشعارات التي بقيت كما كانت دائماً، تُرفع على أنقاض الأكواخ المتهدمة في الجنوب، وعلى اضطهادات الوطن وأنين الإنسان.. وتظل هي الشعارات لا أكثر:

«أعرب يا أبتاه
الحرية: مبتدأ لم يبدأ
والوحدة: قائمة في الموت
والأرض خراب
يقتلها من يحييها»

ومع ذلك يزاودون بالشعارات ويزيدونها، ويرسمون الشعب كما يريدون هم لا كما يريد الشعب، وإرادة الشعب عندهم غريبة دائماً:

«ج
م
ل

مجنون في الصحراء يدور
ويرقص كالدرويش فيضطرب الاعراب
صراخ الوحش قريب
وصراخ الإنسان غريب كالإنسان»

إنهم يكذبون ويخدعون ويتاجرون بالشعب، بالشهداء، بالأيتام، بالأرض والقضية.. بكل شيء:

«كل شيء هنا قابل للخديعة
النساء الرجال البحار السماء الكلاب الممالك»

والقتل الرخيص بكافة أشكاله طقس يومي في هذا الوطن، ولنستمع لهذا المقطع الذي يضع الإدانة بأعلى مراحلها:

«هنا كل موت بمقداره
١/٢ كوب من «الدال»
في
١/٢ كوب من «الميم»
في
١/٢ نصف السماء

ولكن هوذا السؤال يأتي مجدداً: أما من طريق للخلاص رآه الشاعر؟!

نحن ما زلنا للآن مع محمد علي شمس الدين نكتب معادلة ما زادت عن: «الاغتراب + القلق + الحزن + الكشف» فهل سيطوّر هذه المعادلة ويضيف إليها = الخلاص؟!

محمد علي شمس الدين في هذه المعادلة كالطبيب الذي يكشف عن الداء، ثم يقدم الدواء مذاباً في أحلى ماء.. ماء الخلاص، فهو رغم القلق وعمق إحساسه بالمأساة لا ينسى طريق الخلاص، فإن كان الزمن الحاضر سواداً قاتماً، فلا شك أن الآتي سيحمل البياض:

«خبرتني الطوالع قالت
سيأتي زمان
ويولد في حارة الماء
قرب المصلى
صبي تقبله أمه قبلة النار بين العيون»

ومن بحر القهر ستبرز يوماً جزيرة للفرح، إنها جزيرة مبهمة الآن، ولكن بعد طوفان الثورة ستبرز، وسوف يكون بروزها على يد إنسان هذا الوطن بلا شك:

«ينظر من بحر كآبته
فتهاجر من جفنيه حمامة وعد
تظهر بعد الطوفان
ويقول بأن الله تكلم في حنجرة العصفور
وحنجرة الوادي
وترنم في حنجرة الإنسان»

إنه بلا شك يمثل ومضات تفاؤل الفنان المنتمي لقضية الأرض والإنسان، تفاؤل يجعله يضحي بنفسه ما دام يجد في التضحية سبيلاً لخلاص الآخرين:

«فاجرحوني
أنا ذبيحتكم في الزمان المستحيل»

فالأمل شعاع يتسلل إلى عالم الشاعر دوماً رغم تراكم اليأس والقهر في غالب الأحيان.

---

٢ - بيت ياحون: قرية الشاعر في جنوب لبنان
٣ - الخيام: بلدة في جنوب لبنان.

« أخذت مريم غصن الشجرة
رسمت خطين لليأس
وخطاً للأمل ».

هذه بعض مضامين الشاعر في ديوانه الأخير، بعض المضامين، لا كلّها.

★ ★ ★

إذا كان أغلب النقاد يتفقون على أن الشاعر محمد علي شمس الدين من مؤسسي ما يعرف في الشعر العربي الحديث بظاهرة « شعر الجنوب »، فإنني لا أميل إلى هذا، ولا أقرّ بتسمية شعر الجنوب، فالشعر العربي هو الشعر العربي، وقيمة القصيدة تتحدد قبلاً بعدة قضايا فنية وفكرية، قضايا هي التي تعطي للشاعر صفة القرب من القارىء أو ابتعاده.

إذن لماذا برزت هذه التسمية « شعر الجنوب »؟ ولماذا اقترنت بمحمد علي شمس الدين خاصة؟ لعل السبب هو نجاح الشاعر في تكوين عالم شعري صفاته الأساسية سهولة التوصيل للقارىء بفنية متفردة تزاوج بين المضمون الذي مررت على بعضه قبل قليل، وبين الشكل بجميع جوانبه، بفهم يرتقي بالقصيدة إلى حداثة كاملة تتكيء بوعي على المعاصرة دون أن تهمل التراث، فقضية الشعر لدى محمد علي هي قضية وعيه العلمي والفني لجانب مهم من تراثنا الفكري والتاريخي القديم والمعاصر.

في ديوانه - موضوع وقفتنا هذه - فهم كامل للتعامل مع التفعيلة الخليلية على أساس معاصر، فالشاعر ملتزم بها، ولكن يعرف جيداً كيف يسخرها لموسيقا القصيدة وفنيتها، وبالتالي نراه ينوع في التفعيلات بين المقطع والآخر، إنه يترك التفعيلة تأخذ مجراها ووقعها على النفس، ثم ينتقل فجأة إلى تفعيلة أخرى ليطرح ايقاعاً جديداً، وهاكم أمثلة:

« أوافيك من أين
من أعين الآخرين
ألا أيها الآخرون »

هنا التزم (فعولن)، ثم في القصيدة نفسها نجد

« ليس للنار أن تخدع الأبرياء
شهوة »

انتقل إلى (فاعلن)، وهكذا تناوبت التفعيلة بين فاعلن وفعولن، ثم مع امتداد الحدث وثورة العاطفة انتقل إلى « فِعِلُن ».

« نظرت بلقيس
فأبصرت الفرسان على صهوات الخيل »

بل لننظر إليه كيف يقوم بتوزيع فني للتفعيلات في مقطع واحد بشكل متناوب منتظم:

« فعولن - فِعِلُن - فاعلن... »
« قلت: اكتمه
فعولن فعلن
قال: تسمع مني وتنسى »
فاعلن...

إن محمد علي شمس الدين في توظيفه التفعيلة لصالح قصيدته بهذا الشكل المتقدم يرد تلقائياً على دعوى أن الوزن والقافية والتفعيلة تمنع احتواء القصيدة المعاصرة لعواطف الشاعر وإمكانية التعبير التام.

أما الصورة فهي منتقاة بوعي متقدم يرتبط بالواقع، إنه يقرّ من خلال صوره بالواقع الموضوعي ويهتم به اهتماماً عظيماً، وهو من خلال القصائد يسعى قبل كل شيء إلى كشف الواقع وتصويره ضمن إبداعه الفني من خلال صور فنية مكتملة، فالصورة الشعرية لديه تجمع جمعاً عضوياً بين التعميم والنمذجة، وتشمل بالتالي إهمال ما هو مصادف وسطحي وانتقاء ما هو مهم وجوهري، لاحظوا ذلك من خلال هذه الصورة:

« تذوب البحار التي تفصل العاشقين
ولكنني خائف أن تكون البحار التي بيننا
غير موصلة للهوى
إن مرجانة القلب مفقودة »

إن الصورة لديه صورة فريدة، قد يبتعد بها أحياناً عن الموقف التاريخي والحياتي المحدد، فيستخدم أساليب المبالغة والمفارقة والمقابلة بين الأشياء استخداماً واسعاً.

« مددت يدي
لألمس نجمة في الصحن
عند قدوم (سالومي)
فلم ألمس سوى غضين من أغصان جمجمتي »

أضف أن القارىء لديوان الشاعر يؤمن أن العبارات تنتعش لديه، إنه يرسم بالكلمات، وما يبدعه مرئي، بل يكاد يكون ملموساً، إن له قدرة على الملاحظة تشمل عالم رؤياه، وجميع ما يحتويه هذا العالم من أشياء مهما كانت عادية بسيطة:

« جرس المدرسة - الخوف
الأزهار - الخوف
الكتب - الخوف
القلم المكسور الممحاة.. لماذا؟ »

وبين هذا وذاك يبقى إحساس القارىء بالإشراق الدافىء المنبعث من أشعاره، من اعجابه بالأشياء، ومن فضوله الدائب، وطريقة معالجته للمادة التي يتعامل معها.

إن محمد علي شمس الدين في ديوانه - أناديك يا ملكي وحبيبي - يضيف لبنة جديدة إلى بناء القصيدة العربية الحديثة المتقدمة.

الجزيرة السورية